دلالة الفاصلة القرآنية وبنيتها الإيقاعية في الخطاب القرآني

سليم مزهود
قسم اللغة العربية وآدابها
المركز الجامعي ميلة

ملخص

استعملت الفاصلة اصطلاحًا بشكل واضح في النحو والعروض، وعلامات الترقيم وعلوم القرآن. وعرّفت على أنها حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني، تقع في آخر كل آية أو جملة. وتعدّ الفاصلة شكلاً من أشكال القافية، إذ إنَّ البناء الصوتي لها يكاد يكون مماثلاً للبناء الصوتي للقافية التي تتشكل في تكرار صوتي في آخر كل بيت شعري أو آخر شطره، غير أن مدلول الفاصلة القرآنية يتناسب مع ما قبلها، فيعطي نسقا جميلا، ونغما روحانيا رائعا، ويوجب للمعنى فهما أكثر دقة ووضوحا.

الكلمات المفاتيح: فاصلة، إيقاع، صوت، أغراض بلاغية.

Signification de l'intervalle et sa structure rythmique dans le discours coranique

Résumé

L'intervalle est utilisé dans la grammaire, la prosodie, la ponctuation, et les sciences coraniques. Il est défini en tant que graphème homogène relatif aux syllabes imposant la bonne compréhension du sens. Il est situé à la fin de chaque verset ou d'une phrase. L'intervalle est considéré comme une forme de rime qui est formée par la répétition d'un son à la fin de chaque strophe, mais l'intervalle coranique est plus étroitement lié à l'aspect rythmique et donne un beau modèle et une merveilleuse mélodie spirituelle.

Mots-clés: Intervalle, rythme, son, objectifs rhétoriques.

Interval quranic signification and rhythmic structure in quranic discourse

Abstract

The interval was used in the grammar, prosody, punctuation, and Quranic sciences. It is located at the end of each verse or phrase. The interval is considered as a form of rhyme in sound, which is formed by the repetition of a sound at the end of each poetic stanza. But the Quranic interval is more closely related to the rhythmic aspect and gives a beautiful model and wonderful spiritual melody.

Key words: Interval, rhythm, sound, rhetorical goals.

توطئة:

عُنِيَ علماء اللغة العربية بالحروف العربية وتدوينها في القرن الأول الهجري، بدْءاً من تعلّم الناسِ القرآنَ الكريم، حيث بدأ الناس من غير الأصول العربية ينطقون بعض الحروف العربية بغير نطقها الصحيح، لأنها ليست من لغاتهم، ففشا اللحن في الإعراب والقراءة. وكانت العناية بالأصوات من حيث نطق مخارجها وتحديد صفاتها في القرن الثاني الهجري، بينما كان التفريق بين الحرف والصوت في القرن الرابع الهجري، إذ يقول ابن جني (ت 392هـ): "اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلا متصلا، حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا"[1] إذ يمثل الصوت الجانب النطقي، بينما يشكل الحرف الرمز الكتابي للصوت.

ثم حدث التفريق بين الحرف والمقطع في زمن الفيلسوف الفارابي (260–339هـ)؛ أي في القرن الخامس الهجري، حيث يرى أن المقطع هو حصيلة اقتران حرف غير مصوّت (صامت) بحرف مصوت (صائت)، إذ يقول إنَّ "المقطع مجموعة حرف مصوت وحرف غير مصوت"[2].

أما الجاحظ فقد استعمل مصطلح (التقطيع) فقصد به تجزئة الكلام، قال: "الصوت هو آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف... ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف"[3].

وهكذا فقد كان من ثمار الاهتمام بالقراءات القرآنية وباللغة العربية منذ القرن الأول الهجري؛ التوجّهُ نحو وصف الكلام –أصواتًا وبناءً وتركيباً؛ واستقراءه على الألسن؛ فظهر فيما ظهر من موضوعات في وصف النظام الصوتي، وفي وصف بنية الكلمة موضوعُ الهمز وتخفيفه[4].

وحظي الدرس الصوتي باهتمام أهل التجويد والقراءات، فبيّن العلماء والمختصون في الدراسات الصوتية طريقة نطق المخارج وضبطوا مفاهيم الصوت والحرف والمقطع، الذي تتشكل من خلاله الفاصلة القرآنية وهي آخر كلمة في الآية كالقافية في الشعر والسجع في النثر، ويتمثل أثرها في إعطاء الآية جرساً موسيقياً مناسباً، لذا عني القرآن بتوافقها في كثير من السور والآيات، لكونها النوع الذي يباين القرآن به سائر كلام العرب.

والسؤال المطروح هو: ما مفهوم الفاصلة القرآنية في الخطاب القرآني؟ وما هي أبرز الظواهر الصوتية الواردة في فواصل آياته؟

أولا: تعريف الفاصلة لغة واصطلاحاً:

أ– تعريف الفاصلة لغة:

الفاصلة في اللغة مشتقة من مادة "فَصَلَ" وجمعها "فواصل"، وهي الخرزة تفصل بين الخرزتين في العِقْد، والفصل الحاجز بين الشيئين، وفصل بينهما يفصل فصلاً وفصلت الشيء فانفصل؛ أي قطعته[5]، والفصل في اللغة بَوْن ما بين الشيئين والفصل من الجسد موضع المفصل[6].

والفاصلة: الخرزة التي تفصل بين الخرزتين في النظام، والفصل: القضاء بين الحق والباطل، وعقد مفصل؛ أي جعل بين كل لؤلؤتين خرزة[7].

ب– تعريف الفاصلة اصطلاحاً:

استعملت الفاصلة اصطلاحًا بشكل واضح في النحو والعروض، وعلامات الترقيم وعلوم القرآن.

وقد عرّفت الفاصلة القرآنية بتعاريف كثيرة، وخاض فيها العلماء والأدباء وقاموا بدراستها كثيراً فبينوا فيها غايتها الإيقاعية[8]. والفاصلة القرآنية هي: "حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني"[9].

جـ- تعريف الفاصلة عند القدماء:

عرّف الرماني (ت:386هـ) الفاصلةَ بقوله: "الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني"[10].

والفاصلة اصطلاحا هي: "حروف متشاكلة في المقاطع، يقع بها إفهام المعاني"، كما عرفها القاضي أبو بكر الباقلاني (ت:403هـ)[11].

والفاصلة في القرآن الكريم هي آخر كلمة في الآية، كالقافية في الشعر، وقرينة السجع في النثر خلافاً لأبي عمرو الداني (ت:444هـ) الذي اعتبرها كلمة في آخر الجملة[12] إذ قد تشتمل الآية الواحدة على جمل عديدة، ولا تكون الكلمة في آخر كل جملة منها فاصلة لها، بل إنَّ الفاصلة هي آخر كلمة في الآية، يعرف بها نهاية آية وبداية آية جديدة بتمام الآية السابقة.

والفاصلة عند الزركشي (ت:794هـ) هي: "كلمة آخر المعنى"[13]، فهي كل كلمة ختمت بها جملة قرآنية سواء أكانت في ذلك رأسَ آيةٍ أم لم تكن، واستدلَّ بالفاصلة حين لا تكون رأس آية بتمثيل سيبويه (ت796هـ) للقوافي بـ"(يوم يأتِ) في قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إلا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ (هود.الآية:105) و(ما كنّا نبغ) في قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ (الكهف.الآية:64) وهما غير رأس آيتين بإجماع، ومثال أن تكون الفاصلة رأسَ آية كلمة (يَسْرِ) في قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ (الفجر.الآية:4)، وهي رأس آية باتفاق[14].

وأخبر الزركشي أن سيبويه كان يمثّل للفواصل اللغوية لا الاصطلاحية[15].

وعرفها جلالُ الدين السيوطي (ت:911هـ) في الإتقان فقال إنها: "كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقرينة السجع"[16]، إذ تشكّل الكلمة الواقعة آخرَ الآيةِ فاصلةً تتشاكل حروفها ومقاطعها، فتؤثّر في تحسين المعاني وفصلها، فهي تشابه في ذلك قافية الشعر أو هي قرينة السجع، وتؤدي المعنى بأحسن أسلوب، وتلخصه في أوضح عبارة يختتم بها المعنى الجزئي.

وتعدّ الفاصلة شكلاً من أشكال القافية، إذ إنَّ البناء الصوتي للفاصلة يكاد يكون مماثلاً للبناء الصوتي للقافية التي تتشكل في تكرار صوتي في آخر كل بيت شعري أو آخر شطره.

إلاّ أن الفاصلة أكثر ارتباطاً بالجانب الإيقاعي من قرينة السجع، ومن ثم فهي أكثر ارتباطًا بوظيفته، فآيات القرآن الكريم تمتلك أبنية إيقاعية شديدة الشبه بالبناء الوزني للشعر، وإن اختلفت عنه في أنها لا تخضع للتفاعيل العروضية للوزن، مما يجعلها أكثر مرونة في بنائها الإيقاعي وأشد طواعية في التعبير[17].

وبعضُ ما جاء منها مما خضع للتفاعيل العروضية قليل، قد كان عفويا مناسبا للسياق الصوتي للآية.

د- تعريف الفاصلة عند المحدثين:

عرّف المحدثون الفاصلةَ على أنها "كلمة آخر الآية كقافية الشعر وسجعة النثر، والتفصيل هو أن تتوافق أواخر الآي في حروف الروي أو في الوزن مما يقتضيه المعنى وتستريح له النفوس"[18].

قال فضل عباس: "يقصد بالفاصلة ذلك اللفظ الذي ختمت به الآية، فكما سموا ما ختم به بيت الشعر قافيةً، أطلقوا على ما ختمت به الآية الكريمة فاصلة"[19]. وقال منّاع القطان: "ونعني بالفاصلة الكلام المنفصل عما بعده، وقد يكون رأس آية، وقد لا يكون، وتقع الفاصلة عند نهاية المقطع الخطابي وسميت بذلك لأن الكلام ينفصل عنده"[20].

أما فاضل السامرائي فيقول: "إنّ الفاصلة القرآنية لا يراد فيها مراعاة الحروف، وإنما يراد المعنى مثل ذلك، ويلتقي الحرف بالمشابهة اللفظية في المعنى وأحياناً لا يراعي القرآن الفاصلة، بل قد تأتي مغايرة عن غيرها، وهذا دليل على أن المقصود بالدرجة الأولى هو المعنى"[21].

ففي قوله تعالى مثلا: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى. وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى. جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى. وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لّا تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَى. فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ. وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ (طه.الآية:74–79)، نجد أنّ الفاصلة في الآية رقم 78: (غَشِيَهُمْ) مغايرةً للفاصلة القرآنية في باقي الآيات من السورة (يحيى، العلى، تزكّى، تخشى، هدى)؛ لأن المقصود الأول هو المعنى.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ. فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ. ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاء يَنطِقُونَ. قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ. أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء.الآية:63–67) نجد أن الفاصلة في الآية رقم 66: (يَضُرُّكُمْ)، لا ارتباط لها بما قبلها وما بعدها، فهي مغايرة للفاصلة في باقي الآيات: (ينطقون، الظالمون، تعقلون).

ومثال آخر في سورة الانشقاق قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا. إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ. بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ (الانشقاق.الآية:13–15)، نجد أن الفاصلة (يحورَ) لم يضف إليها ألف الإطلاق والمد لأجل أن توافق الفاصلتين (مسرورا) و(بصيرا) لأن المعنى سيتغير أو يصير به لبسٌ، فلو أضيفت تلك الألف لصارت اللفظة (يحورا) دالّةً على المثنّى أو تلتبس به، وفي هذا دلالة على أن القرآن يراعي المعنى قبل مراعاة الناحية اللفظية.

ومن ثَمَّ فإن الفاصلة في القرآن الكريم هي عبارة عن آخر كلمة أو جملة في الآية، أو هي عبارة عن حروف متشاكلة في المقطع الواحد توجب حسن إفهام المعنى.

ثانيا: مصطلح الفاصلة في القرآن الكريم:

اشتقَّ لفظ الفاصلة من الآيات القرآنية الآتية[22]: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فصلت.الآية:3)، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ (فصلت.الآية:44).

ولا يجوز تسميتها قافية إجماعاً؛ لأن الله لَمّا سلب عن القرآن اسم الشعر، وجب سلب القافية عنه أيضًا، لأنها منه وخاصة في الاصطلاح[23].

وتكمن أهمية الفاصلة القرآنية في كونها عنصراً مهما في تأمل الآية القرآنية وما تؤديه من وظيفة أساسها الإيقاع الموسيقي في الآيات القرآنية[24].

ويتمثل أثر الفاصلة في إعطاء الآية جرسًا موسيقيّا مناسبًا، لذا عني القرآن بتوافقها في كثير من السور والآيات[25].

ويرجع اهتمام العلماء بالفاصلة القرآنية لكونها النوع الذي يباين القرآن به سائر كلام العرب، إذ إنَّ الفاصلة ترتفع عن قيود القافية وسجع النثر، لينفرد بها القرآن الكريم فيتميز بها، ومحلها هو أواخر الآيات في كتاب الله.

وقد اختلف العلماء في تسمية آخر الآيات بالفاصلة، حيث سماها بعضهم سجعا، وعارض لفظَ السجعِ آخرون، إذ إن القرآن مترفع عن السجع لما فيه من تكلّف، لاسيما وأن كثرة السجع تعدّ عيبا بينما تعد الفاصلة – كلما كثرت– بلاغة[26].

ولا يسمى سجعًا ما ورد في القرآن متناسقَ حروف الروي والإيقاع، موحّدَ خاتمة الفاصلة، بل يسمى فاصلة، "ولو كان القرآن سجعًا لكان غير خارج عن أساليب كلام العرب، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز، ولو جاز أن يقال: هو سجع معجز لجاز أن يقولوا: شعر معجز، فكيف والسجع مما كان تألفه الكهان من العرب، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر، لأن الكهانة تنافي النبوّات بخلاف الشعر"[27].

وقد استبعد العلماء القدماء والمحدثون تسمية الفاصلة سجعا أو قافية، تكريما للقرآن الكريم، وترفعا أن يقاس على منظوم الناس.

وقد ردّ ابن سنان الخفاجي (ت:466هـ) جزءًا من المفاضلة بين السجع والفاصلة، أثناء نقاشه عليّا بن عيسى الرماني، إذ قال: "وأما قول الرماني إن السجع عيب، والفواصل على الإطلاق بلاغة فغلط، فإنه إن أراد بالسجع ما تتبع المعنى وكأنه غير مقصود فذلك بلاغة، والفواصل مثله، وإن كان يريد بالسجع ما تقع المعاني تابعة له، وهو مقصود متكلف فذلك عيب، والفواصل مثله... وأظن أن الذي دعا أصحابنا إلى تسمية كل ما في القرآن فواصلَ، ولم يسمّوا ما تماثلت حروفه سجعًا رغبتهم في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروي عن الكهنة وغيرهم، وهذا غرض في التسمية قريب"[28].

إن الحديث عن تعبير مسجوع في القرآن الكريم ترفضه طبيعة النسق القرآني الكريم، ففي قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ.حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ. كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ. ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ. كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ. لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ. ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ. ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر.الآية:1–8) نشهد انتقالا من نسق تقف فيه الفاصلة عند الراء، إلى نسق آخر تقف فيه عند النون، وكذا الميم.

فاللفظ (المقابر) يفرض ذاته فرضًا بيانيا قاطعًا دون النظر إلى الفاصلة في الآية الكريمة، إذ إنَّ لفظ (المقابر) في حد ذاته يجعلنا نستنتج المعاني التي تناسبه في الضد، فبضدها تعرف الأشياء فنتذكر التكاثر في الأموال والأولاد والنساء، واللذات والسلطان والقصور والخدمِ والديار، والأنهار والزورع والثمار والوسائل المادية والمراكب والحيوان، وما إلى ذلك مما يصحبه من التفاخر، والتنابز والتنافر والتصارع والتضارب والتسابق، وهو من معاني التكاثر.

و"المقابر جمع مقبرة، والمقبرة الواحدة مرعبة هائلة، فإذا ضممنا مقبرة مترامية الأطراف الى مقبرة مثلها ومقبرة أخرى، ازددنا رعبًا وفزعًا، فإذا أصبحت مقابر عديدة؛ تضاعف الرعب والرهب، إذن هذا التكاثر الشهواني في كل شيء، يوافقه بدقة متناهية الجمع المليوني للقبور، لتصبح مقابر لا قبوراً، ولو قيل في غير القرآن بمساواة القبور للمقابر في الدلالة لما سدّ هذا الشاغر الدلالي شيء آخر من الألفاظ فهو لها فحسب"[29].

وهكذا نستنتج أن الصيغة البلاغية في استعمال لفظة (المقابر) لم تكن من أجل المناسبة الصوتية للتكاثر فحسب، وإنما تتعداها إلى تناسب في المعنى العميق المتشابك المتجذر. فالفواصل القرآنية لا تقتصر على نسق الإيقاع وانسجام النغم في الفواصل القرآنية[30].

ولا يعني هذا أن الإيقاع غير مراد، وإنما تضاف إليه الأغراض البلاغية والمعاني الخفية والقوية، ففي قوله تعالى: ﴿أَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ. وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾(الضحى.الآية:9–10) تقدم المفعول به الأول (اليتيم) عن عامله الفعل (تقهر)، وتقدم المفعول به الثاني (السائل) عن عامله (تنهمر)، مراعاة لنسق الفاصلة من جهة ولتبيان أهمية المتقدم من جهة أخرى.

وقد رأى ابن الأثير (ت:637هـ) أن التقديم في الآية السابقة يكون لأجل الاختصاص ونظم الكلام[31]، لكن إبراهيم أنيس رأى أن التقديم جاء لمراعاة موسيقى الفاصلة القرآنية، إذ لا يصح للمفعول أن يسبق ركني الإسناد في الجملة المثبتة كما يزعم أصحاب البلاغة[32].

بينما رأى أحمد مطلوب رأيَ ابن الأثير، لأن الهدف ليس هو عدم القهر والنهر في الدرجة الأولى، وإنما هو الترفق باليتيم والسائل، ولذلك تقدم المفعولان على فعليهما، ولو كان القصد غير ذلك لتأخرا وجاءا على نسق الكلام[33].

ويبدو –انطلاقا مما سبق ذكره– أن علماء اللغة العربية وعلوم القرآن، قد أطلقوا على نهاية البيت الشعري اسم القافية، وعلى نهاية جملة النثر اسم السجع، وعلى نهاية الآية الكريمة من القرآن الكريم اسم الفاصلة.

ولا يلتزم التنقلُ في فواصل القرآن، الوقوفَ عند حرف معين في كلّ مرّة، إذ إنَّ التنقلَ متأرجحٌ بين الالتزام وعدمه في آيات القرآن الكريم وسوره.

ومن أمثلة الجمع بين فاصلتين اثنتين الفاصلتان: (تحشرون) و(العقاب) في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ. وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ. وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الأنفال.الآية:24–26).

إنّ الوقوف عند حرف معين لا يتغير في الفاصلة في سور عديدة، وبخاصة قصارها كالقدر والعصر والفيل والليل والكوثر والاخلاص والناس، إضافة إلى سور أخرى من غير القصار متمثلة في سورتي القمر والأعلى، حيث يتجلى النغم الصوتي في السور المذكورة بأبهى صوره، وأروع مظاهره، ومثال ذلك سورة الناس، إذْ يقول تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ. مَلِكِ النَّاسِ. إِلَهِ النَّاسِ. مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ. الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ. مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ (الناس.الآية:1–6).

أما الوقوف عند حرف معين للفاصلة في آيات السورة، والانتقال منه للوقوف عند حرف آخر في بعض آياتها الأخرى، فمثاله في سورة عبس، حيث يقول تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ. لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ. وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ. ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ. وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ. تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ. أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ (عبس.الآية:34–42).

إذ انتقلت الفاصلة من صوت الهاء في آخر الكلمات في الآيات الأولى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ **أَخِيهِ**. وَأُمِّهِ وَ**أَبِيهِ**.وَصَاحِبَتِهِ وَ**بَنِيهِ**. لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ إلى الراء الملحقة بالتاء القصيرة بعدها في الآيات التي تلتها: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ. ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ. وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ. تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ. أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾.

يتبين لنا من خلال الشواهد القرآنية السابقة أنَّ مدلول الفاصلة القرآنية يتناسب مع ما قبلها مما يعطي نسقا جميلا، ونغما روحانيا رائعا، يوجب للمعنى فهما أكثر دقة ووضوحا.

إننا نحس عند استماعنا إلى القرآن الكريم أو عند تلاوتنا آياته الكريمة أنّ للفواصل نغمات نفسيةً ومعنوية، وإيقاعاً يعطي الانسان روحاً، ويحس عندها بمتعة فنية مؤثرة تبث في الفؤاد الطمأنينة والارتياح[34].

ثالثا: الظواهر الصوتية في فواصل الآيات:

إنَّ في فواصل القرآن الكريم ظواهرَ صوتيةً تتركز في الحرف الأخير من الكلمة الفاصلة، فإما أن يحذف الحرف، أو يمدّ بحرف، أو يسكن وهو المتحرك، أو يصير متحركا وهو الساكن، أو ينون إضافة إلى تقديم كلمة على كلمة، وتأخير أخرى.

وفي هذا يقول الزركشي (ت:794هـ): "إنه قد كثر في القرآن الكريم ختم كلمة المقطع من الفاصلة بحروف المد واللين وإلحاق النون، وحكمته وجود التمكن من التطريب"[35].

وقال سيبويه (ت:180هـ): "إن العرب إذا ما ترنّموا، فإنهم يلحقون الألف والواو والياء ما ينون وما لا ينون، لأنهم أرادوا مدَّ الصوت"[36]

وأبرز الظواهر الصوتية في فواصل الآيات في الخطاب القرآني هي:

1-ألف الإطلاق: من أبرز الظواهر الصوتية في الفاصلة القرآنية، مدّ الحرف الأخير في الفاصلة وتواصل النغم بالنغم الذي بعده، فتتلاحم الإيقاعات عناية بالبعد الصوتي ونسق البيان، لضمان استمرارية التأثير في نفوس المتلقين، ومن أبرز هذه الظواهر ألف الإطلاق، إذ تلحق الألف بأواخر الكلمات التي تنتهي بحرف متحرك ومثل ذلك في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ (الأحزاب.الآية:10)، وقوله عز وجل: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا﴾ (الأحزاب.الآية:66) وقوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾ (الأحزاب.الآية:67).

إذ إنَّ إلحاق الألف في الكلمات (الظنون) و(السبيل) و(الرسول) ظاهرة صوتية تخدم تناسق النغم والبيان؛ "لأن فواصل هذه السورة منقلبة عن تنوين في الوقف، فزيد على النون ألف لتساوي المقاطع، وتناسب نهايات الفواصل"[37].

2- هاء السكت: هي من الظواهر الصوتية التي برزت بقوة في سورة القارعة، حيث تزاد هاء ساكنة وتكون لصيقة بحرف الياء، فتتوافق معه، ومن ثم تتوافق الفواصل بعضها مع بعض، قال تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ.مَا الْقَارِعَةُ.وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ. يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ. وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ. فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ. فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَهْ. وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ. فَأُمُّهُ هَاوِيَهْ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ. نَارٌ حَامِيَهْ﴾ (القارعة.الآية:1-11) وكذلك في قوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ. مَا الْحَاقَّه. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّه. كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَه. فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَه. وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَه. سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا

صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَه. فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَه. وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَه. فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَه. إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَه. لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَه. فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَه. وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَه. فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَه. وَانشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَه. وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَه. يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَه. فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَه. إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَه. فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَه. فِي جَنَّةٍ عَالِيَه. قُطُوفُهَا دَانِيَه. كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَه. وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَه. وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَه. يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ. مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَه. هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَه﴾ (الحاقة.الآية:1–29)، حيث تتأرجحُ هاء السكت بين عواطف الأمل والفزع، والخشيةِ والذهول.

فالفواصل الواردة في الآيات السابقة من السورتين الكريمتين: (هاويه. كتابيه. حسابيه. كتابيه، حسابيه ماليه، سلطانيه)، والفواصل المتبقية التي تقرأ بهاء سكت عند الوقف ومنها: (راضيه واعيه، خافيه، عاليه، دانيه، الخاليه، القاضيه...) كلها تحقق –على المستوى الصوتي– جوّا يتراوح بين الخشوعِ والأمل والألم، والرضى والندم، فتكون من ذلك جوّ عاطفي درامي، نتيجة زيادة هاء السكت رعاية لفواصل الآيات المختومة بالتاء القصيرة والتي اقتضى السياق نطقها هاء للتوافق.

3- الهاء: تحقق الهاء في فواصل القرآن الكريم التنبيهَ إلى أمر ما، والمثال قوله تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيه. وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيه. وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيه. وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيه﴾ (المعارج.11–14)، إذ تقع الهاء في الأذن وقعا مُطربا، يسيطر على شعور المستمع، ففي الفواصل (بنيه. أخيه. تؤيه. ينجيه) قد تحقق جوّ من الانتباه إلى ما ينتظر الإنسان يوم القيامة من مصير أكيد، مما يقوّي حاسة الإصغاء والانتباه في نفس المستمع.

4– الحذف: يرتبط الحذف في السياق القرآني بالنص ارتباطًا عضويّا مراعاة لسياق المعنى الذي ورد فيه، فضلا عن مراعاة الفاصلة، إذ يؤدّي دوره في بناء النظم القرآني جماليا ودلاليا على حد سواء، ومثال ذلك قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ (الشعراء.الآية:72–73).

والمحذوف في الآية هو المفعول به في الفاصلة (يضرّون)، في حين ورد في المعطوف عليه قبلها (يسمعونكم)، وللحذف في هذا السياق دلالة معنوية وجمالية، إضافة إلى مراعاة الفاصلة، فلو أنه ذكر المفعول به لمَا انسجمت فواصل الآيات، كما أن الحذف قد اقتضاه المعنى أيضاً، إذْ إنَّ ذكر المفعول في (ينفعونكم) يبيّن بأنهم يريدون النفع لأنفسهم.

ومن أشهر المحذوفات التي تخدم نظام الفاصلة القرآنية في الخطاب القرآني، ياء المتكلم، وحرف العلة في آخر الكلمة سواء أكانت اسما أم فعلا.

أ- **حذف ياء المتكلم:** حيث يحذف الحرف الأخير من الكلمة الفاصلة، حتى تتوافق مع الفواصل التي قبلها والتي تليها توافقا صوتيا، عناية بالنسق القرآني، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُون. أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُون. إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِين. إِنِّي

آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ. قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (يسين.الآية:22–27)، حيث حذفت ياء المتلكم في الفاصلتين: (لا ينقذون)، و(فاسمعون) والأصل هو: (لا ينقذوني)، (فاسمعوني)، إذ إنَّ الوقوف على النون يعطي غنة وطربا للأذن.

ويبدو أن هذه الظاهرة متكررة مطردة في عديد من آيات القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ. لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ. وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ. وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون.الآية1–6:) وقوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾(الفجر.الآية:15–16) حيث حذفت ياء المتكلم في (دين) و(أكرمنِ) و(أهانن)، والأصل هو: (ديني) (أكرمني) (أهانني).

ب- حذف آخر حرف العلة: يحذف حرف العلة من آخر الكلمة بالرغم من عدم وجود عامل يؤدي إلى حذفها، وإنما الحذف لمراعاة نسق الآيات وانسجام إيقاعها ونغمها، ومثال ذلك في قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ.وَلَيَالٍ عَشْرٍ.وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ. وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ. هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ (الفجر.الآية:1–5)، إذْ حذفت الياء من (يسري) لتوافق الفواصل التي قبلها والتي بعدها.

جـ- حذف حرف: من الظواهر الصوتية في آيات القرآن الكريم حذفُ حرف ما رعايةً للفاصلة والبعد الصوتي، وعناية بالنسق القرآني كما في قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ. وَلَيَالٍ عَشْرٍ. وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ. وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ (الفجر.الآية:1–4)، إذ حذفت الياء من يسري موافقة للفاصلة فيما يبدو، ومثله قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ. لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ. وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ. وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون.الآية:1–6)، والأصل هو (لكم دينكم ولي ديني)، ولكن الياء حذفت مراعاة للفاصلة.

5- التكرار: إن للفاصلة القرآنية حظا وافرا من ظاهرة التكرار؛ الذي يسهم في تقوية جانب الإيقاع والانسجام الصوتي، إضافة إلى إفادة توكيد المعنى وتقويته وتوضيحه.

ومن التكرار اللازم في الفواصل القرآنية قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، حيث تكررت إحدى وثلاثين مرة في هذه السورة، وهي تفيد معنى إرادة الله في سياقها الذي تساق فيه، وقد كان توظيفها دلاليًا وبلاغيًا وجماليًا بالغ الروعة والدقة حيث عقب كل نعمة أسداها الله للإنسِ والجن تتكرر الفاصلة لتفيد بتعدد النعم والفصل بين كل نعمة وأخرى؛ كما أنها تحرص على حث الإنسان على الابتعاد عن الوقوع في التكذيب بيوم الآخرة والجنة والنار.

وفي فائدة التكرار يقول الزمخشري: "إن في التكرير تقريرا للمعاني في الأنفس، وتثبيتا لها في الصدور. ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفّظ العلوم إلا ترديد ما يرام تحفظه منها. وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلوب، وأرسخ له في الفهم، وأثبت للذكر، وأبعد من النسيان"[(38)].

6- التقديم والتأخير: ظاهرة التقديم والتأخير من الظواهر الأسلوبية دورانًا في الفواصل القرآنية، حيث تحصل بها العناية بترتيب الفواصل، وتحقيق الانسجام والتناغم الصوتي، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى. قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى. وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى. فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ (طه.الآية:67–70)، فتأخر الفاعل (موسى) عن

المفعول به (خيفة) حتى يكون التوافق مع الفواصل الأخرى، (الأعلى، أتى، موسى) المنتظمة على الألف المقصورة.

ومن مواضع التقديم والتأخير على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى. وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالأُولَى﴾ (الليل.الآية:12–13) إذ عدلت الآية عما هو متعارف عليه من تقديم (الأولى) على (الآخرة)، في حين قدمت (الأولى) على (الآخرة) في سياق قرآني آخر، حيث يقول تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص.الآية:28)، حيث لم تكن رعاية الفاصلة فحسب هي الداعية إلى تقديم لفظة الآخرة في سورة الليل، وتأخيرها في سورة القصص، وإنما استدعى ذلك كله سياقُ المعنى المراد، ثم جاء الإيقاع الموسيقي متمّماً للمعنى، وتابعاً له، وليس مقصوداً في ذاته، فقد وردت آية الليل في سياق الأخبار عمن يبطره غناه ويفتنه ماله، فيغفل عن مآله ومصيره بعد الموت، فلا يغنيه المال حينذاك فتيلا، يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى. وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى. وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى. إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى. وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالأُولَى﴾ (الليل.الآية:8–13)، فجاء السياق لمواجهة الغفلة عن الآخرة.

7– إيثار لفظة على أخرى: ومثالها إيثار استخدام الفاصلة للفظة (ضِيزَى) على الرغم من غرابتها في مألوف الاستعمال، لأنها الأكثر مناسبة لمعنى القسمة الجائرة والظالمة، فلم ترد في القرآن الكريم كلّه إلا في هذا السياق في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى. أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى. تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ (النجم.الآية:19–22). وقد تناول الرافعي كلمة (ضيزى) تناولاً دقيقاً وشاملاً في قوله: "وفي القرآن لفظة غريبة هي من أغرب ما فيه، وما حسنت في كلام قط إلا في موقعها فيه وهي كلمة (ضيزى) من قول الله سبحانه وتعالى: ﴿تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ (النجم.الآية:22)، ومع ذلك فإنّ حسنها في نظم الكلام من أغرب الحسن ومن أعجبه، ولو أردت اللغة العربية ما صلح لهذا الموضع غيرها، فإن السورة التي هي منها وهي سورة النجم مفصلة كلّها على الياء فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل، ثم هي في معرض إنكار العرب، إذ وردت في ذكر الأصنام وزعمهم بقسمة الأولاد، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات الله مع وأدهم البنات؛ فقال تعالى: ﴿أَلَكُمْ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى. تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ (النجم.الآية:21–22)، فكانت غرابة اللفظ أشدّ الأشياء ملاءمةً لغرابة هذه القسمة التي أنكرها وكانت الجملة كلها كأنها تصوّر –في هيئة النطق بها– الإنكارَ في الأولى والتهكم في الأخرى. وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة وخاصة في اللفظة الغريبة الذي تمكّنتْ في موضعها من الفصل، ووصفتْ حال المتهكم في إنكارٍ من إمالة اليد والرأس بهذين المدّين فيها إلى الأسفل والأعلى وجمعت غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية"[(39)].

8- إحلال صيغة مكان أخرى: هو أن يحلّ السياق القرآني صيغة محلّ أخرى في نهايات الآيات على سبيل المجاز العقلي، وهو صورة من صور التوسع اللغوي الذي استخدمه العرب قديما في كلامهم نثرًا وشعرًا. ويأتي هذا الإحلال في الصيغ؛ لأغراض بلاغية، وأبعاد دلالية وجمالية. كما أن السياق يقتضيه، ومثال هذا الإحلال صيغة "اسم الفاعل" التي حلّت محلّ صيغة "اسم المفعول" للتعبير عنه، في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ. فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (القارعة.الآية:6–7)، وعبّر السياق القرآني بقوله (رَاضِيَةٍ) بدلا عن (مرضيه) لدلالة معنوية تمثلت في المبالغة في الرضى بعيشة الجنة في الآخرة.

9- الاستغناء بالتثنية عن الإفراد: هي أن ترد الكلمة المفردة بالتثنية مراعاة للفاصلة، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. ذَوَاتَا أَفْنَانٍ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن.الآية:46-51).

قال الفراء: "أراد جنّة نحو قوله تعالى: (فإن الجنة هي المأوى) فثنّى لأجل الفاصلة، والقوافي تحتمل من الزيادة والنقصان ما يحتمله سائر الكلام"[40].

ونرى أن التثنية هنا جاءت للتضعيف في الإحسان، فكأنه سبحانه يقول للمؤمنين: لكم بدل الجنة جنتان، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء.الآية:40).

ثم إن الله أخبرنا في القرآن الكريم بوجود جناتٍ كثيرة، إذ يقول تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ (البقرة.الآية:25)، ونسمي الجنتين والجنات جنة، كما نطلق على مجموع الأراضي اسم الأرض، من باب إطلاق اللفظ يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة.الآية:82).

10- الانتقال من فاصلة إلى أخرى: يظهر الانتقال في الفواصل القرآنية بهدف التأكيد على مضمون الخطاب، أو نقل المتلقي من حالة شعورية إلى أخرى قد تكون معاكسة، ففي سورة التكوير مثلاً ينبني إيقاع آياتها المقتضب على الظرف المستقبل للزمان المتضمن معنى الشرط غير الجازم: "إذا" المناسب للفعل المبني للمجهول، ما دام الأمر متعلقا بالغيب، قال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ. وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ. وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ. وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ. وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ. وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ. وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ. وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ. بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ. وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ. وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ. وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ. وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ. عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ (التكوير.الآية:1-14)، فبعد هذه الفواصل التي تحمل المشاعر الممتلئة رعبا ورهبا في الآيات السابقة يكون الانتقال إلى الفواصل التي تحمل المشاعر الهادئة والمطمئنة، إذ يقول تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ. الْجَوَارِ الْكُنَّسِ. وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ. وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ. إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ. مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ. وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ. وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ. وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ. وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ. فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ. إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ. وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (التكوير.الآية:15-29).

ومثال الانتقال في الفاصلة من عاطفة إلى أخرى، ومن واقع إلى آخر، قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا. وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا. وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا. فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا. فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا. يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ. تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ. قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ. أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ. يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ. أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً. قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ. فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ. فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ. هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى. إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى. اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى. فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى. وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ (النازعات.الآية:1-19).

إن في هذه الآيات من سورة النازعات إيقاعين موسيقيين منسجمين مع الأجواء الشعورية لتلك السورة، إذ تجلت في البدء المقطوعاتُ القصيرة بألفاظ قوية جدا أُطلقَتْ فيها أسماء الفاعلين، فكانت سريعة النبض شديدة القوة، ومثالها: (النَّازِعَاتِ غَرْقًا) (النَّاشِطَاتِ نَشْطًا) (السَّابِحَاتِ سَبْحًا)(السَّابِقَاتِ سَبْقًا) (المدبرات أمرا) (ترجف الراجفة)

(تتبعها الرادفة) (قلوب... واجفة) (أبصارها خاشعة) (مردودون في الحافرة) (عظاما نخرة) (كرة خاسرة) (زجرة واحدة) (هم بالساهرة).

وأما الإيقاع الثاني فمتوسط بين اللين والقوة لتناسبه مع السياق القصصي، ومثال فواصله: (حديث موسى) (المقدس طوى) (إنّه طغى) (أن تزكّى) (ربك فتخشى).

إن الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن ما هي إلاّ صور تامّة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى على حد قول الرافعي، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقًا عجيبًا يلائم نوعَ الصوتِ والوجه الذي يساق عليه[41].

إن للفاصلة القرآنية وظيفتين، واحدة متعلقة بالبلاغة، وأخرى متعلقة بجمال الإيقاع، ولا يجوز القول إن الفاصلة جاءت لتتفق مع رؤوس الآيات الأخرى فقط دون الانتباه للغرض المعنوي[42].

ولا تقتصر الفواصل القرآنية على نسق الإيقاع وانسجام النغم وإنما تضاف إليه الأغراض البلاغية والمعاني الخفية والقوية، ولها نغمات نفسية ومعنوية وإيقاع يعطي الانسان روحاً، ويحس عندها بمتعة فنية مؤثرة تبث في الفؤاد الطمأنينة والارتياح.

وأبرز ظواهرها الصوتية في الخطاب القرآني هي: ألف الإطلاق، وهاء السكت، والهاء، وحذف ياء المتكلم، وحذف آخر حرف العلة، وحذف حرف ما والتقديم والتأخير، وإيثار لفظة على أخرى وإحلال صيغة مكان أخرى، والاستغناء بالتثنية عن الإفراد والانتقال من فاصلة إلى أخرى.

فالفاصلة ظاهرة أسلوبية حفلت بها الجملة القرآنية، وهي تضفي على السياق قيمة دلالية وجمالية بالغة الأهمية، ليس من الناحية الصوتية الجمالية فحسب، وإنما تأتي كذلك لمقتضيات معنوية مع نسق الإيقاع وائتلاف الجرس لألفاظها التي اقتضتها المعاني.

وتلك ميزة فنية في الأسلوب القرآني، تضاف إلى أسرار الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم.

الهوامش:

1- أبو الفتح عثمان بن جني: سر صناعة الإعراب. تحقيق: حسن هنداوي. دار القلم، دمشق، ط1، 1985م، ص 6.

2- أبو نصر محمد الفارابي: الموسيقى الكبير. تحقيق: غطاس عبد الملك خشبة، ومحمد أحمد حنفي. دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط1، 2010م، ص 1072.

3- أبو عثمان الجاحظ: البيان والتبيين. تحقيق: عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي، القاهرة، ومكتبة الهلال، بيروت ط2، 1968م، ج1، ص 798.

4- أبو البركات الأنباري: نزهة الألباء في طبقات الأدباء. تحقيق: إبراهيم السامرائي. مكتبة الأندلس، دمشق، ط2، 1970م، ص 2627.

5- المنجدُ في اللغة والأَعْلَام، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط28، 1986م، ص 585.

6- ابن منظور: لسان العرب، بيروت، لبنان. د.ت، ج11، ص 521.

7- انظر: جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة المشهد الحسيني القاهرة، 1967م، ج1، ص 220.

8- انظر: بدر الدين الزركشي: البرهان في علوم القرآن. تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم. مكتبة دار التراث، القاهرة ج2، ص 53.

9- محمد الحسناوي: الفاصلة في القرآن، دار عمار، عمان، الأردن، ط2، 2000م، ص 29.

10- الرماني، والخطابي، وعبد القاهر الجرجاني: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1976م، ص 97.

11- انظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 53.

12- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

13- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

14- عثمان بن قنبر سيبويه: الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، 1975م، ج2، ص 289.

15- انظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 53.

16- جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص 96.

17- انظر: سمير العزاوي: التنغيم اللغوي في القرآن الكريم، دار الضياء للطبع والنشر والتوزيع، الكويت، 2000م، ص 101–103.

18- محمد الحسناوي: الفاصلة في القرآن، ص 29.

19- فضل عباس وسناء عباس: إعجاز القرآن الكريم.المكتبة الوطنية، عمان، الأردن، ط1، 1991م، ص 225.

20- مناع القطان: مباحث في علوم القرآن، مكتبة وهبة، القاهرة، ط، 1990م، ص 136.

21- فاضل السامرائي: الفاصلة القرآنية، دار عمار للنشر، ط1، 1999م. ص 130.

22- جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ج2، ص 96.

23- انظر: المرجع نفسه، ج:3، ص 292.

24- محمد شهاب العاني: أثر القرآن الكريم في الشعر الأندلسي من الفتح حتى السقوط، دار دجلة، بغداد، د.ت، ص 71.

25- كاصد الزيدي: الجرس والايقاع في تعبير القرآن، مجلة آداب الرافدين، كلية الآداب جامعة الموصل، العدد:60، 2007م، ص 351.

26- فاضل السامرائي: الفاصلة القرآنية، ص 38.

27- جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ج3، ص 293.

28- ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة، تحقيق: عبد المتعال الصعيدي، مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، 1969م، ص 166.

29- محمد حسين علي الصغير: تطور البحث الدلالي، دراسة في النقد البلاغي واللغوي، مطبعة العاني، بغداد 1988م، ص 70.

30- انظر: عائشة بنت الشاطىء: التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف، القاهرة، 1968م، ج1، ص 207.

31- انظر: ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد. مطبعة مصطفى البابي، القاهرة، 1939م، ج2، ص 39.

32- انظر: إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة. مكتبة الأنجلو مصرية، مصر، ط8، 2010م، ص 312.

33- انظر: أحمد مطلوب: بحوث لغوية، دار الفكر، عمّان، ط1، 1987م، ص 57.

34- فاضل السامرائي: الفاصلة القرآنية، ص 38.

35- انظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 68.

36- سيبويه: الكتاب، ج2، ص 298.

37- الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 61.

38- المرجع نفسه، ج3، ص 20.

39- مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الفكر العربي. بيروت، لبنان، ط9، 1973م، ص 230.

40- أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء: معاني القرآن، عالم الكتب، بيروت، ط3، 1983م، ج3، ص 118.

41- انظر: عائشة بنت الشاطيء: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل بن الأزرق، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1971م، ص 249.

42- انظر: المرجع نفسه، ص 278.